كانت صفوريّة كبرى قرى قضاء الناصرة، في فلسطين، من حيث عدد السكان ومساحة الأرض، وتشدّد الرواية الإسرائيليّة المتعلّقة باحتلالها على شهرتها بمقاومة القوات الغازية، وقد احتلّت تمهيدًا للهجوم على الناصرة، قاومت تقدّم الجيش الإسرائيلي مقاومة شديدة، ثلاث طائرات إسرائيليّة قصفت القرية ليل 15 تموز، ملقية براميل مشحونة بالمتفجّرات والشظايا المعدنيّة والمسامير والزجاج، وقد قتلت القنابل نفرًا من سكّان القرية وجرحت الكثيرين، وطُرد من نجى لكنّ تسلّل مئات منهم عائدين في الأشهر اللاحقة، وطُردوا ثانية وسُويّت القرية بالأرض.

تناولنا في لقائنا الأخير بمنتدى الكتاب الحيفاويّ رواية «سروال بلقيس» للأديب صبحي فحماوي وفيها تحدّث عن فلسطين وأيّام الزمن الجميل الحاضرة في ذاكرة اللاجئين، كلّ الوقت، فصالحة السمراء تتحدّث عن أيّامها الجميلة في صفّورية، في بيت حجر نظيف وعِلّيّة مُطلّة على بحر عكا تحرسه بيّارة، أيّام الدراسة والموسيقى الكلاسيكيّة الغربيّة، والنشيد الوطني الفلسطينيّ، وحمدة تستذكر زوجها الشهيد وذكريات تلك الأيام وبلقيس تستحضر تلك الأيام على أمل أن تعود...قريبًا.†

تزامن الأمر مع قراءة مسودّة رواية لأسير فلسطينيّ بعنوان "أرض السماء" وأحداثها "صفّوريّة" بإمتياز، وكتبتُ لصاحبها: "صفّوري يطلّ على صفّورية المدمّرة من حيّ الصفافرة النصراويّ، عادة يورّثها الجدّ للحفيد، لا تبعد عن مرمى البصر، ولكنّها سُلبَت منه إثر النكبة؛ صفوريّة أجمل مكان في العالم، فردوسًا مفقودًا يحلم أبناؤه باستعادته يومًا ما".

عشتُ هذا المشهد السرياليّ يوم 05.12.2018 حين رافقت إيفا (سميرة) حمد الزعتريّة بطريقنا خروجًا من الناصرة فسألتني عن بلدة صفّورية فركنت السيارة لنطلّ عليها وتساءلتُ في أذنيها: "ما هو الأصعب، أن تنظر إليها صباح مساء وحُرمتَ منها أم أن تكون لاجئًا في الشتات، وكلاكما تحلم بالعودة إليها؟"

تحدّثت وصديقي د. يوسف عراقي المشتّت قسرًا منذ النكبة حول تلك المحادثة ففاجئني قائلًا أنّه بصدد رسم لوحة لصفّورية ممّا حفزني لقراءة رواية «تذكرتان إلى صفّورية» لسليم البيك، ثانيةً (239 صفحة، ٢٠١٧، دار الساقي)، وقد صدر له مجموعة قصصيّة هي «كرز أو فاكهة حمراء للتشيزكيك» ورواية «سيناريو»، ويحرّر مجلّة رمّان الثقافيّة الفلسطينيّة.

الحنين يخنق الروح، فلا شيء يُشبع الحنين إذا استبدّ بنا ونحن في الغربة. كثيرًا ما نحتاج أن نروي لشخص آخر حكايتنا حتى نفهمها، فخلال السرد نكتشف الكثير من بواطن الغموض الذي كنّا لا نفهمه قبل ذلك، ففيه تفريغ الذاكرة من شحنة مُرعبة من الصور والأحداث والتداعيات وعلاج للتنفيس عن الكتمان والاحتقان، فأن تتذكّر كلّ شيء مع التفاصيل الدقيقة التي تدمي القلب، لكنّها تنعش الروح. تقصّ الحكاية دون أن تنسى حرفًا واحدًا، وكأنّها مطبوعة كشريط مسجّل تعاود سردها في كلّ مرّة من جديد بلا كلل أو ملل، وهذا ما يحكيه ويورثه أهلنا في الشّتات، جيل بعد جيل، ليرسّخ في الأجيال القادمة حلم العودة، كلّ إلى صفّوريتِه.

اللجوء، على أنواعه، والتشريد هو الثيمة الرئيسة في الرواية، فنرى يوسف –بطل الرواية- قد ورث اللجوء أبًا عن جدّ، جدّه شُرّد من صفّورية الفلسطينيّة إلى مخيّمات اللجوء في سوريا، هاجر والداه طلبًا للرزق إلى دبي، فوُلِد هناك ليرِث النكبة والتشرّد واللجوء، يعود إلى سوريا ولكنّ الحرب السوريّة دفعته، كغيره من آلاف اللاجئين الفلسطينيّين، للجوء إلى أوروبا، آملًا بتحقيق حلمه وهدفه في العودة إلى صفّورية وفلسطين بجواز سفر أوروبيّ.

يتأخّر يوسف عن الطائرة المسافرة إلى فلسطين "لكن... كيف تُقلع بدوني؟ مَن على متنها أنا أولى منهم جميعًا"، لتفشل محاولته الأولى لزيارة صفّورية، ولكن يبقى هذا الحلم ليحاول تحقيقه ثانية.

بدأ يوسف رحلته الشاقّة للوصول إلى فرنسا تهريبًا، كلّفه 13 ألف دولار، كي يصل فقط إلى صفّورية، لا إلى الشّتات الفرنسي، رحلة وعرة من مخيّم اليرموك الفلسطينيّ في سوريا مارًا بتركيا واليونان وإيطاليا، ووِجهته هولندا، لكنّه يحطّ عصى الترحال في فرنسا علّها تكون محطّته الأخيرة قبل صفّورية، من اليوم الذي خرج فيه من المخيّم وهو لا يرى إلّا أنّه يكمل مشوارًا إلى صفّورية، عالمًا يتمناه يوسف لتكتمل هويّته التي رسخت في ذهنه وتجذّرت في عروقه بالوراثة.

لم يختر يوسف اسمه، كما لم يختر أمورًا عديدة، بوغِت بها على مراحل، لم يُستَشر بذلك يوم وُلد؛ سُميّ يوسف تيمّنًا باسم جدّه "قائد المجموعة الصغيرة من الفلاحين المقاتلين ببنادق الصيد التي كانت لديهم، في المعركة التي احتلت فيها إسرائيل القرية عام النكبة... تلك القرية الصغيرة في الجليل، صفّورية، أو عاصمة فلسطين".

تسميته بيوسف أخذتني إلى الابن الذي رسمته تمام الأكحل في لوحة "إرث الشهيد"، يحمل جثة الشهيد العارية ما دامت خارج الوطن إلى أن تُوارى في ترابه، إنّها وصيّة الأب الشهيد لابنه، أن يبقى حاملًا ذكراه ولا ينسى الوطن، ولن يستريح الجثمان إلّا حين يحتضنه تراب الوطن، رُدّني إلى بلادي هي صرخة الشهيد لابنه، لن يستر جسدي إلّا تراب الوطن! قال غابرييل غارسيا ماركيز في روايته «مئة عام من العزلة»: "المرء لا ينتمي إلى أيّ مكان، ما دام ليس له فيه ميّت تحت التراب"، ليكون له قبر وشواهد، وهذا هو الإرث الذي يورّثه كلّ فلسطينيّ للآتين من بعده.

لا يشعر يوسف بالانتماء لتلك الأماكن التي مرّ بها، فكلّها مؤقّتة، "ليا"، صديقته الفرنسيّة، الشخصيّة الوحيدة التي ترافقه في حكايته، وهي التي تحفّزه على كتابة حكايته "حبيبي، لمَ لا تكتب ما حصل معكَ؟" يتحوّل إلى جوزيف، اسم يزيحه عن هويّته ليمثّل قيمات جديدة، تغيّر له قهوته وطعامه، من شيخ المحشي، الكبّة النيّة، ورق الدوالي، اللبن إمّو، المسخّن، ملوخيّة صفّورية، الرز البنّي مع صلصة الطراطور والطحينة والبقدونس والليمون والثوم مع سمك مقلي أو مشوي، الصيّاديّة، الزعتر، اللبنة، المكدوس والشنكليش مرورًا بالشوارما والمفتول والكباب ليصل إلى وجبة تتكوّن من "سلطة ونبيذ ووجبة رئيسيّة، وأحيانًا جبنة ومُحليّات وقهوة"، غاتوه "مادلين"، الباغيت على أنواعه، الشاركتري: تشكيلات من لحم الخنزير تؤكل نيئة وباردة، معها أجبان وخبز ونبيذ أحمر، جبنة الكاممبير ورائحتها العفنة، يخترق قدس أقداس الثقافة الفرنسيّة، ألا وهي طاولة السُفرة وطقوس غداء الأحد: "الغداء الممتدّ من الثانية عشر ظهرًا حتى الخامسة أو السّادسة، عائلات أو أصدقاء. غداء يبدأ بكأس نبيذ، وهذا الكأس بلا قاع، يستمر بالامتلاء حتى ربع الساعة الأخير من العزومة. ولا بدّ من صحون المقبّلات، من البسكوت والشيبس والمكسّرات إلى قطع اللحم النيء والنبيذ الأبيض، تُفرش على الطاولات. ثم السّلطات، ثم الوجبة الرئيسية، وكأس النبيذ الأبيض يصير أحمر، ولا يكاد يفرغ حتى يُملأ. تنتهي الوجبة لتحضر الأجبان، ثم المُحليّات، ثم يُستبدل كأس النبيذ بفنجان من القهوة" (ص.21).

تشنطَط يوسف بين المساكن والأمكنة، والحقيبة، رمز اللجوء والتشرّد والأمل بالعودة، حاضرة، فحين رجوعه من المطار ترك الحقيبة لأيام منصوبة بجانب الباب كالخيمة، والحقائب حاضرة في غرف بيت أهله كما في كلّ بيوت المخيّم، جاهزة لتعبئتها ومتأهّبة منذ النكبة للعودة الموعودة والقادمة لا محالة، مثلها مثل المفتاح الموروث الذي سيفتح باب بيت جدّه في صفّورية.

تبدأ الرواية بتأخّر يوسف عن اللحاق بالطائرة الأولى، وتنتهي حين يغادر إلى المطار مع ليا، وتذكرتين، يصلان صالة الانتظار، بوّابة العودة إلى صفّورية، ويبدأ الصراع النفسي ويتخبّط بنفسه، ستكون زيارة وليس عودة، ليست بعودة عن أجداده الأربعة وعن والديه وعن نفسه!؟ ولم يُرد أن تكون زيارته هو الفلسطينيّ إلى فلسطين بجواز سفر فرنسيّ وإلى مطار إسرائيليّ، ليس هذا ما انتظره سبعين عامًا، منذ خرج جدّه من الجليل إلى الشّام، توالى الخروج، أبوه من المخيّم إلى دبي، وهو من كلّ ذلك مغرّبًا إلى أوروبا.

يتحسّر يوسف لأنّه لا يستطيع أن يبني له مكتبة كباقي شعوب العالم، فالمكتبة تأتي مع الاستقرار وهذا ينقصه، فلا مكان لمكتبة في بيت دون مواطنة كاملة لصاحب البيت! وتصل الحسرة والشعور بالفقد ذروتها حين يزور ليا في بيت والداها، لغداء يوم الأحد وطقوسه، "بعد الغداء، وقف أمام لوحة كبيرة معلّقة على الحائط، لشجرة العائلة منذ القرن التاسع عشر... سألها مشيرًا بإصبعه إلى واحد من أجدادها أعلى اللوحة: أين عاش؟ في بيتنا في القرية... نجتمع فيه صيفًا"... هذه كلّ الحكاية!!!

تتناول الرواية سؤال الهويّة، عند الجيل الثالث، جيل ورث اللجوء القسري عن أجداده ليضيف إليه لجوءاً جديدًا صنعه بنفسه، بمحض إرادته والظروف، فيوسف ولد في دبي وعاش في اليرموك وانتقل إلى فرنسا دون أن يشعر بالانتماء إلى مكان، لم يجد نفسه منتميًا لأي منها لأنّ انتمائه الوحيد لصفّورية التي يتمنّاها، إرث جدّه الذي حمّلوه اسمه يوم وُلِد.

يوسف لاجئ مختلف، يدلّع نفسه بالأفلام والسينما، البيتزا والبيرة، القهوة على أشكالها من موكا إلى النسكافية والإسبرسّو، الباستا مع الثوم أو البصل أو كليهما، مع صلصة الكريمة البيضاء أو الريحان الخضراء أو الجبنة الصفراء، اللحمة على أنواعها من الميرغيز والشوريزو إلى الستيك والمفرومة للبولونيز، بيرة البرسْيون البيضاء، الآيفون واللابتوب والإميل والفيسبوك حاضرة على طول الرواية وعرضها، بارات مع فرق تعزف الجاز، "يشتري ملابس من زارا وماسّيمو دوتي وغيرهما، يأكل في تشيليز وفدركرز ومطاعم أخرى بشكل شبه يوميّ، يذهب إلى السينما كلّ ويك-إند، يمضي وقتًا طويلًا في مقهى كوستا مع لابتوبّه وميلكشيك بالفريز أو كافيه لاتيه وقطعة مَفن كبيرة. يقتني أحدث جهاز آيفون دون أن يعرف ميزاته عن سابقه سوى أنّ شاشته أكبر وأنقى، وكاميرا كانون دون أن يستخدمها إلا

لتجريبها. يشتري الكثير من الأفلام من ڤيرجين... ويفكّر بتمضية أسبوعين سياحة في باريس"(ص.75)... والورود!

يلاحق هوَس الجنس يوسف عبر صفحات الرواية، يتحدّث عن الجنس الفموي والـ 69، حفلة جنس سادو-مازوشيّة، "ميناج آ تْروا" حفلة جنس ثلاثيّة مع الأم والابنة"، ممارسة الجنس على الفراش الواطئ (ستايل ياباني على رأي ليا)، وعندما رأى البائعة العشرينيّة في المخبز "أراد يوسف أن ينطّ عليها، أن يمتطيها فورًا على الطاولة ملتهمًا حبّتَي الدونَتْس الملتصقتيْن على صدرها، أن يسلخها على ردفيْها، أن تنطبع أصابعه على بياضهما. أرادها أن تغلق المحلّ ليغمّس الباغيت النورمال الساخن في جسدها"(ص. 55)، فهناك مثل فرنسيّ يشبّه ممارسة الجنس بتغميس البسكوت في الفنجان، وتفكيره حين يدخل البار بأن يتعرّف قُبيل مغادرته مصادفة على فتاة ليسألها: "شي مْوا أُو شي تْوا؟ عندي أم عندِك؟"، تصويره لمشهد ممارسة الجنس الساخن (ص. 83)، التنصّت عبر الحائط لتأوّهات جنسيّة لجيرانه في المخيّم ولجارته في تولوز، ويصل به الحد للتفكير: "لو كنتُ لأختار بين إقلاع الطائرة بدوني وعودتي إلى هنا لتكوني معي الآن مستلقية على ذراعي، وبين أن أكون في فلسطين بعد ساعات لكن بدونِك هناك وبدونِك هنا، لاخترتُ ما حصل اليوم"! هذا اللي طِلِع معك يا يوسف!؟

نجح الكاتب بالوصف الدقيق لأصغر الأمور، كمخرج سينمائي مع كاميرا يتحكّم بعدسة الزّوم والفوكس، فلا تهرب منه واردة أو شاردة.

يتقن الكاتب فنّ الاسترجاع في مونولوجاته، يعيدنا إلى أحداث وذكريات وتخبّطات لتسليط الضوء على ما حدث في الماضي ليخربط الأوراق والأمكنة والأزمنة، بحرفيّة تشدّ القارئ لتتبّع السيناريو ومستجدّاته.

لجأ سليم البيك إلى السخرية والكوميديا السوداء الجارحة، ووُفّق في ذلك؛ يتحدّث عن نهاية الأسبوع في فرنسا "خطر له أنّ مجموعة فدائيّة فلسطينيّة يمكن أن تجول في هذه الشوارع ظهر يوم أحد وتنشر بيانًا في اليوم التالي بأنّها تحكم المدينة الأحد، وتحكمها الدولة باقي أيام الأسبوع"، وعن فكرة شراء هديّة لنفسه "قرّر الذهاب إلى المكتبة المتخصّصة بالسينما ويشتري لنفسه هدية عيد الميلاد... يختار الأفلام... يخطر له أن يطلب من البائع تغليفها بورق أحمر وتوصيلها إلى البيت مجانًا... سيعطيهم عنوانه بعد تغليف الأفلام ويعود إلى بيته لانتظارها... قبل ليل النّويل بيوم، استيقظ باكرًا وقرّر، أخيرًا، الذهاب لشرائها، لكنّه وجد المكتبة مغلقة للمناسبة ذاتها". يسخر من هَوَس العربيّ

بالجنس: "العربيّ المهجوس بالجنس الذي يحمل عضوه على كتفه ويجول به في شوارع أوروبا إلى أن يرتطم بباب أحد الجوامع فيلمّه ويدخل للصلاة". يسخر كذلك من المكتبات العربيّة في أوروبا التي تتحوّل إلى بؤرة منفّرة للدعوى: "جال بين مكتبات المدينة، وجد واحدة عربيّة، هي تلك الإسلاميّة المدهونة واجهتها بالأخضر والتي تحوي، إضافة إلى الكتب الدينيّة، سجّادات صلاة مزوّدة ببوصلة الكعبة وساعات منبّه تُعيّر حسب الصلوات الخمس"، وتبلغ ذروتها حين يتذكّر قادة الثورة الفلسطينيّين والتدخين "يمسك السيجارة بأسنانه حين يتكلّم ويعلّقها بطرفَيّ شفتيه حين يستمع. ويُجعلك جفنيْه مع كلّ سحبة"!

جاءت لغة الرواية جميلة وسلسة، متبّلة بالمحكيّة مع استعماله المُوفّق للكلمات العاميّة "ما بِلبَق لي"، "آخر مرّة بفوت هون"، "سيزنبع"، "سيزنقح"، "سيطيّر مَي"، "ما بضحّك"، "الكراكيب"، "انضَحَك عليّ"، "أخو الشّليتة"، "العمى شو تيس"، "شو اللي عملته" وغيرها. كذلك الحال مع الشتائم والمسبّات التي تواكب الرواية عالحامي والبارد!

صفّورية المُشتهاة ما زالت تنتظر؟!؟!

الكاتب: حسن عبادي